

سورة الفاتحة

السورة طائفة من القرآن مؤلفة من ثلاث آيات فأكثر لها اسم يعرف بطريق الرواية ، وقد روى لهذه السورة عدة أسماء اشتهر منها : أم الكتاب . أم القرآن . (لاشتغالها على مقاصد القرآن من الثناء على الله والتعبد بأمره ونهييه ، وبيان وعده ووعيده) ، والسبع المثاني (لأنها تثنى في الصلاة) ، والأساس (لأنها أصل القرآن وأول سورة فيه) ، والفاتحة (لأنها أول القرآن في هذا الترتيب أو أول سورة نزلت) فقد أخرج البيهقي في كتابه الدلائل عن أبي ميسرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً فقالت معاذ الله ، ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم ، وتصدق ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم أخبر ورقة بذلك ، وإن ورقة أشار عليه بأن يثبت ويسمع النداء ، وإنه صلى الله عليه وسلم لما خلا ناداه الملك يا محمد قل : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين - حتى بلغ ولا الضالين .

وقد رجح هذا بأنها مشتملة على مقاصد القرآن على سبيل الإجمال ثم فصل ما أجملته بعد .

بيان هذا أن القرآن الكريم اشتمل على التوحيد ، وعلى وعد من أخذه بحسن المثوبة ووعد من تجافى عنه وتركه بسىء العقوبة ، وعلى العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبت في النفوس ، وعلى بيان سبيل السعادة الموصل إلى نعيم الدنيا والآخرة ، وعلى القصص الحاوى أخبار المهتدين الذين وقفوا عند الحدود التي سنّها الله لعباده وفيها سعادتهم في دنياهم وآخرتهم ، والضالين الذين تعدوا الحدود ونبذوا أحكام الشرائع وراءهم ظهوراً .

وقد حوت الفاتحة هذه المعاني جملة ، فالتوحيد يرشد إليه قوله (الحمد لله رب

العالمين) لأنه يدل على أن كل ثناء وحمد يصدر عن نعمة فهو له ، ولن يكون هذا إلا إذا كان غرض اسمه مصدر النعم التي تستوجب الحمد ، وأهمها نعمة الإيجاد والتربية وذلك صريح قوله (رب العالمين) وقد استكملة بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) وبذلك اجتث جذور الشرك التي كانت فاشية في جميع الأمم ، وهى اتخاذ أولياء من دون الله يستعان بهم على قضاء الحاجات ويتقرب بهم إلى الله زلفى .

والوعد والوعيد يتضمنهما قوله (مالك يوم الدين) إذ الدين هو الجزاء وهو إما ثواب للمحسن وإما عقاب للمسيء ، والعبادة تؤخذ من قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) .

وطريق السعادة يدل عليه قوله (اهدنا الصراط المستقيم) إذ معناه أنه لا تتم السعادة إلا بالسير على ذلك الصراط القويم ، فمن خالفه وانحرف عنه كان فى شقاء مقيم .

والقصص والأخبار يهذى إليها قوله (صراط الذين أنعمت عليهم) فهو يرشد إلى أن هناك أمما قد مضت وشرع الله شرائع لهديتها فاتبعتها وسارت على نهجها فعلمنا أن نخذو حذوها ونسير على سنتها ، وقوله (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) يدل على أن غير المنعم عليهم صنفان : صنف خرج عن الحق بعد علمه به وأعرض عنه بعد أن استبان له ورضى بما ورثه عن الآباء والأجداد وهؤلاء هم المغضوب عليهم ، وصنف لم يعرف الحق أبداً أو عرفه على وجه مضطرب مهوش ، فهو فى عمالة تلبس الحق بالباطل وتبعد عن الجادة الموصلة إلى الصراط السوى ، وهؤلاء هم الضالون .

وهذه السورة إحدى السور المكية التى نزلت قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وعدة آياتها سبع .

وقد نزل القرآن الكريم منجما أى مفردا فى ثلاث وعشرين سنة على حسب الحوادث التى دعت إلى نزوله ، وقد نزل بعضه بمكة قبل الهجرة وبعضه بالمدينة بعدها ، ولكل من المكي والمدنى ميزات يعرف بها .

فمن ميزات المكي أنه نزل لبيان أسس الدين من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین، وفعل الخیرات وترك المنكرات، مع إيجاز في التعبير واختصار في الأسلوب، ويتضح ذلك جلیا في قصار المفصل كالحاقة والواقعة والمرسلات . ومن ميزات المدني أنه جاء بأحكام العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية في السلم والحرب، وأصول التشريع للحکومات الإسلامية إلى إسهاب في الأسلوب وبسطة في القول ولا سيما عند محاجة أهل الكتاب والنهي عليهم بتحريف ما أنزل إليهم ودعوتهم إلى التوحيد الخالص وبيان أن الإسلام الذي جاء به القرآن هو دين الأنبياء صلوات الله عليهم جميعا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

تمهيد

يرى بعض الصحابة - كعلي وابن عباس وابن عمر وأبي هريرة ، وبعض التابعين كسعيد بن جبير وعطاء والزهرى وابن المبارك وبعض فقهاء مكة وقراءها ومنهم ابن كثير ، وبعض قراء الكوفة وقتهاؤها ومنهم عاصم والكسائى والشافعى وأحمد - أن البسملة آية من كل سورة من سور القرآن الكريم .

ومن أدلتهم على ذلك :

(١) إجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها فى المصحف أول كل سورة عدا سورة براءة ، مع الأمر بتجريد القراءان من كل ما ليس منه ، ومن ثم لم يكتبوا (آمين) فى آخر الفاتحة :

(٢) ما ورد فى ذلك من الأحاديث ، فقد أخرج مسلم فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنزلت على أنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم » ، وروى أبو داود عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف انقضاء السورة حتى ينزل عليه (بسم الله الرحمن الرحيم) وروى الدارقطنى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا قرأتم الحمد لله فاقروا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها أم القراءان والسبع المثانى وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها .

(٣) أجمع المسلمون على أن ما بين الدفتين كلام الله تعالى ، والبسملة بينهما فوجب جعلها منه .

ويرى مالك وغيره من علماء المدينة ، والأوزاعى وجماعة من علماء الشام وأبو عمرو يعقوب من قراء البصرة وهو الصحيح من مذهب أبى حنيفة - أنها آية مفردة من القرآن أنزلت لبيان رؤوس السور والفصل بينها .

ويرى عبد الله بن مسعود أنها ليست من القرآن أصلاً وهو رأى بعض الخنفية .
ومن أدلتهم على ذلك حديث أنس قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم
وأبى بكر وعمر وعثمان وكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون بسم
الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا آخرها .

الإيضاح

(بسم) الاسم هو اللفظ الذى يدل على ذات ك محمد وإنسان ، أو معنى
كعلم وأدب .

وقد أمرنا الله بذكره وتسميته في آيات فقال (فاذكروا الله عند المشعر الحرام
واذكروه كما هداكم) وقال (فاذكروا الله كذا كرم آباءكم أو أشد ذكراً) وقال :
(فإذا قضيتُم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم) .

وأمرنا بذكر اسمه وتسميته في آيات أخرى فقال (واذكروا اسم ربك وتبتل
إليه تتبيلاً) وقال (واذكروا اسم ربك بكرة وأصيلاً) وقال (وما لكم ألا تأكلوا
لأنما ذكروا اسم الله عليه) .

ومن ذلك يعلم أن ذكر المسمى مطلوب بتذكر القلب إياه ونطق اللسان به لأنه
دليل على ذكر القلب بتذكر عظّمته وجلاله ونعمه المتظاهرة على عباده ، وذكره
باللسان هو ذكر أسمائه الحسنى وإسناد الحمد والشكر إليه وطلب المعونة منه على إيجاد
الأفعال وإحداثها .

وكذلك ذكر الاسم مشروع ومطلوب ، فيعظم الاسم مقروناً بالحمد والشكر
وطلب المعونة في كون الفعل معتداً به شرعاً ، فإنه ما لم يصدر باسمه تعالى يكون
بمنزلة المعدوم .

(الله) علم مختص بالمعبود بالحق لم يطلق على غيره ، وكان العربى في الجاهلية
إذا سئل من خلق السموات والأرض ؟ يقول الله ، وإذا سئل هل خلقت اللات
والعزى شيئاً من ذلك ؟ يجيب (لا) .

والإله اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود بالحق .
 (الرحمن الرحيم) كلاهما مشتق من الرحمة وهى معنى يقوم بالقلب يبعث صاحبه على الإحسان إلى سواه ، ويراد منه أنى جانب المولى عز اسمه أثرها وهو الإحسان .
 إلا أن لفظ (الرحمن) يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة وهى إسباغ النعم والإحسان ، ولفظ (الرحيم) يدل على منشأ هذه الرحمة وأنها من الصفات الثابتة اللازمة له ، فإذا وصف الله جل ثناؤه بالرحمن استفيد منه لغة أنه المفيض للنعم ، ولكن لا يفهم منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائماً ، وإذا وصف بعد ذلك بالرحيم علم أن لله صفة ثابتة دائمة هى الرحمة التى يكون أثرها الإحسان الدائم ، وتلك الصفة على غير صفات الخلقين ، وإذا يكون ذكر الرحيم بعد الرحمن كالبرهان على أنه يفيض الرحمة على عباده دائماً لثبوت تلك الصفة له على طريق الدوام والاستمرار .
 افتتح عز اسمه كتابه الكريم بالبسملة إرشاداً لعباده أن يفتتحوا أعمالهم بها ، وقد ورد فى الحديث كل أمر ذى بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر (أى مقطوع الذنب ناقص) .

وقد كان العرب قبل الإسلام يبدءون أعمالهم بأسماء آلهتهم فيقولون باسم اللات أو باسم العزى ، وكذلك كان يفعل غيرهم من الأمم ، فإذا أراد امرؤ منهم أن يفعل أمراً مرضاة لملك أو أمير يقول أعمله باسم فلان ، أى أن ذلك العمل لا وجود له لولا ذلك الملك أو الأمير .

وإذا فعنى أبتدىء على باسم الله الرحمن الرحيم أنتى أعمله بأمر الله والله لا لحظ نفسى وشهواتها .

ويمكن أن يكون المراد - أن القدرة التى أنشأت بها العمل هى من الله ولولا ما أعطانى من القدرة لم أفعل شيئاً فأنا أبرأ من أن يكون على باسمى بل هو باسمه تعالى ، لأننى أستمد القوة والعون منه ، ولولا ذلك لم أقدر على عمله ، وإذا فعنى بالبسملة التى جاءت أول الكتاب الكريم ، أن جميع ما جاء فى القرآن من الأحكام

والشرائع والأخلاق والآداب والمواظب - هو لله ومن الله ليس لأحد غير الله فيه شيء ، وكأنه قال اقرأ يا محمد هذه السورة بسم الله الرحمن الرحيم ، أى اقرأها على أنها من الله لا منك ، فإنه أنزلها عليك لتهديهم بها إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقصد من تلاوتها على أمته أنه يقرأ عليهم هذه السورة باسم الله لا باسمه أى أنها من الله لا منه ، فإنما هو مبلغ عنه تبارك وتعالى كما جاء في قوله (وأمرت أن أكون أول المسلمين ، وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل إنما أنا من المذنبين) .

« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) » .

الإيضاح

(الحمد لله رب العالمين) الحمد لغة هو المدح على فعل حسن صدر عن فاعله باختياره ، سواء أسداه إلى الحامد أو إلى غيره .

والمدح يعم هذا وغيره فيقال مدح المال ومدح الجمال ومدح الرياض .
والثناء يستعمل في المدح والذم على السواء ، فيقال أثنى عليه شرا كما يقال أثنى عليه خيرا .

والشكر هو الاعتراف بالفضل إزاء نعمة صدرت من المشكور - بالقلب أو باللسان أو باليد أو غيرها من الأعضاء كما قال شاعرهم :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

يريد أن يدي ولساني وقلبي لكم ، فليس في القلب إلا نصحكم ومحبتكم ، ولا في اللسان إلا الثناء عليكم ومدحكم ، ولا في اليد وسائر الجوارح والأعضاء إلا مكافأتكم وخدمتكم .

وورد في الأثر - الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبده لم يحمده . وقد جعله رأس الشكر لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على من أسداها ، يشهرها بين الناس . ويجعل صاحبها القدوة المؤتسى به ، أما الشكر بالقلب فهو خفي قل من يعرفه ، وكذلك الشكر بالجوارح مبهم لا يستبين لكثير من الناس .
(لله) هو المعبود بحق لم يطلق على غيره تعالى .

(رب) هو السيد الربى الذى يسوس من يريه ويدبر شئونه .
وتربية الله للناس نوعان ، تربية خلقية تكون بتنمية أجسامهم حتى تبلغ الأشد ، وتنمية قواهم النفسية والعقلية - وتربية دينية تهذيبية تكون بما يوحىه إلى أفراد منهم ليبلغوا للناس ما به تكمل عقولهم وتصفو نفوسهم - وليس لغيره أن يشرع للناس عبادة ولا أن يحل شيئاً ويحرم آخر إلا بإذن منه .

ويطلق الرب على الناس فيقال رب الدار ، ورب هذه الأنعام كما قال تعالى حكاية عن يوسف صلوات الله عليه فى مولاه عزيز مصر (إنه ربى أحسن مثواى) وقال عبد المطلب يوم الفيل لأبرهة قائد النجاشى : أما الأبل فأنا ربها ، وأما البيت فإن له رباً يحميه .

(العالمين) واحد هم عالم (بفتح اللام) ويراد به جميع الموجودات ، وقد جرت عادتهم ألا يطلقوا هذا اللفظ إلا على كل جماعة متمايزة لأفرادها صفات تقر بها من العقلاء إن لم تكن منهم ، فيقولون عالم الإنسان ، وعالم الحيوان وعالم النبات ، ولا يقولون عالم الحجر ، ولا عالم التراب ، ذاك أن هذه العوالم هى التى يظهر فيها معنى التربية الذى يفيد لفظ (رب) إذ يظهر فيها الحياة والتغذية والتوالد .

والخلاصة - أن كل ثناء جميل فهو لله تعالى إذ هو مصدر جميع الكائنات ، وهو الذى يسوس العالمين ويربهم من مبدئهم إلى نهايتهم ويلومهم ما فيه خيرهم وصلاحهم ، فله الحمد على ما أسدى ، والشكر على ما أولى .

(الرحمن الرحيم) قد سبق أن قلنا إن معنى الرحمن المفيض للنعم الحسن على عباده .

بلا حصر ولا نهاية ، ولفظه خاص بالله تعالى ولم يسمع عن العرب إطلاقه على غيره تعالى إلا في شعر لبعض من قن بمسيلة الكذاب :

سموت بالمجد يا ابن الأكرمين أبا . وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا
والرحيم هو الثابت له صفة الرحمة التي عنها يكون الأحسان .

وقد ذكر سبحانه هذين الوصفين ليبين لعباده أن ربوبيته ربوبية ترجمة وإحسان ليقبلوا على عمل ما يرضيه وهم مطمئنون النفوس منشروا الصدور ، لا ربوبية جبروت وقهر لهم .

والعقوبات التي شرعها الله لعباده في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة لمن تعدى حدوده وانتهك حرمانه - هي قير في الظاهر ورحمة في الحقيقة ، لأنها تربية للناس وزجر لهم حتى لا ينحرفوا عن الجادة التي شرعها لهم إذ في اتباعها سعادتهم ونعيمهم ، وفي تجاوزها شقاؤهم وبلاؤهم ، ألا ترى إلى الوالد الرؤوف كيف يربي أولاده بالترغيب في عمل ما ينفع والإحسان إليهم إذا لزموا الجادة ، فإذا هم حادوا عن الصراط السوي لجأ إلى الترهيب بالعقوبة حين لا يجد منها محيصا قال أبو تمام :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

(مالك يوم الدين) قرأ بعض القراء مالك ، وبعض آخر ملك ، والفارق بينهما أن المالك هو ذو الملك (بكسر الميم) والملك هو ذو الملك (بضم الميم) وقد جاء في الكتاب الكريم ما يعاضد كلا من القراءتين ، فيعاضد الأولى قوله (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا) ويعاضد الثانية قوله (لن الملك اليوم) .

قال الراغب : والقراءتان وإن رويتا عن جمع كثير من الصحابة ، فالثانية يكنفها من الجلال والروعة وإثارة الخشية ما لا يوجد مثله في القراءة الأولى ، فهي تدل على أنه سبحانه هو المتصرف في شئون العقلاء بالأمر والنهي والجزاء ، ومن ثم يقال ملك الناس ولا يقال ملك الأشياء :

والدين يطلق لغة على الحساب ، وعلى المكافأة ، وعلى الجزاء ، وهو المناسب هنا ،

وإنما قال مالك يوم الدين ، ولم يقل مالك الدين ليعلم بأن للدين يوماً معيناً يلقي فيه كل عامل جزاء عمله .

والناس وإن كانوا يلاقون جزاء أعمالهم في الدنيا باعتبارهم أفراداً من بؤس وشقاء جزاء تفریطهم في أداء الحقوق والواجبات التي عليهم — فربما يظهر ذلك في بعض دون بعض ، فانا نرى كثيراً من المنغمسين في شهواتهم يقضون أعمالهم وهم متمتعون بلذاتهم ، نعم إنهم لا يسمون من المنقصات ، وربما أتهم الجوائح في أموالهم ، واعتلت أجسامهم ، وضعفت عقولهم ، ولكن هذا لا يكون جزاء كاملاً لما اقترفوه من عظيم الموبقات وكبير المنكرات ، كذلك نرى كثيراً من المحسنين يتلون بهضم حقوقهم ولا ينالون ما يستحقون من حسن الجزاء ، نعم إنهم ينالون بعض الجزاء بإراحة ضمائرهم وسلامة أجسامهم وصفاء ملكاتهم وتهذيب أخلاقهم ولكن ليس هذا كل ما يستحقون من الجزاء ، فإذا جاء ذلك اليوم استوفى كل عامل جزاء عمله كاملاً إن خيراً فخير وإن شراً فشر جزاء وفاقاً لما عمل (ولا يظلم ربك أحداً) ، (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

أما الناس باعتبارهم أمماً وجماعات فيظهر جزاؤهم في الدنيا ظهوراً تاماً ، فما من أمة انحرفت عن الصراط السوى ولم تراع سنة الله في الخليقة إلا حل بها ما تستحق من الجزاء من فقر بعد غنى وذل بعد عزة ومهانة بعد جلال وهيبة .

وقد جاء قوله (مالك يوم الدين) إثر قوله (الرحمن الرحيم) ليكون كترهيب بعد ترغيب ، وليعلمنا أنه تعالى ربى عباده بكل الأنوع من الترية ، فهو رحيم ومجاز لهم على أعمالهم كما قال (نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) .

(إياك نعبد وإياك نستعين) العبادة خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود اعتقاداً بأن سلطاناً لا يدرك العقل حقيقته ، لأنه أعلى من أن يحيط به فكره أو يرقى إليه إدراكه .

فمن يتذلل للملك لا يقال إنه عبده ، لأن سبب التذلل معروف ، وهو إما الخوف من جوره وظلمه ، وإما رجاء كرمه وجوده ، والعبادة صور وأشكال تختلف باختلاف الأديان والأزمان ، وكلها شرعت لتنبيه الإنسان إلى ذلك السلطان الأعلى والمسلكت الأسمى ، ولتقويم المعوج من الأخلاق وتهذيب النفوس ، فإن لم تحدث هذا الأثر لم تكن هي العبادة التي شرعها الدين .

هاك الصلاة تجد أن الله أمرنا بإقامتها والإتيان بها كاملة وجعل من آثارها أنها تنهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن كما قال (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) فإن لم يكن لها هذا الأثر في النفوس كانت صوراً من الحركات والعبارات خالية من روح العبادة وسرها فاقدة جلالها وكمالها ، وقد توعد الله فاعليها بالويل والثبور فقال (ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) فهم وإن سماهم مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة ، وصفهم بالسهو عن حقيقتها ولها وهو توجه القلب إلى الله والإخبات المشعر بعظمته ، وقد جاء في الحديث : من لم تنبه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا . وأنها تلف كما يلف الثوب البالي ويضرب بها وجهه .

والاستعانة طلب المعونة والمساعدة على إتمام عمل لا يستطيع المستعين الاستقلال بعمله وحده .

وقد أمرنا الله في هذه الآية ألا نعبد أحدا سواه ، لأنه المنفرد بالسلطان ، فلا ينبغي أن يشاركه في العبادة سواه ولا أن يعظم تعظيم المعبود غيره ، كما أمرنا ألا نستعين بمن دونه ، ولا نطلب المعونة المتممة للعمل والوصول إلى الثمرة المرجوة إلا منه ، فيما وراء الأسباب التي يمكننا كسبها وتحصيلها .

بيان هذا أن الأعمال يتوقف نجاحها على أسباب ربطتها الحكمة الإلهية بمسبباتها وجعلتها موصلة إليها ، وانتفاء موانع من شأنها أن تحول دونها ، وقد أوتى الإنسان بما فطره الله عليه من العلم والمعرفة كسب بعض الأسباب ودفع بعض الموانع بقدر

استعداده الذى أوتيّه ، وفى هذا القدر أمرنا أن نتعاون ويساعد بعضنا بعضاً كما قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) فنحضر الدواء لشفاء المرضى ونجلب السلاح والكرع ونكثر الجند لغلب العدو ونضع فى الأرض السماد ونرويهما ونقتلع منها الحشائش الضارة للخصب وتكثير الغلة .

وفى وراء ذلك مما حجب عنا من الأسباب يجب أن نفوض أمره إلى الله تعالى فنستعين به وحده ونفزع إليه فى شفاء مريضنا ونصرنا على عدونا ورفع الجوائح السماوية والأرضية عن مزارعنا ، إذ لا يقدر على دفع ذلك سواه ، وهو قد وعدنا إذا نحن لجأنا إليه بإجابة سؤلنا كما قال (ادعونى أستجب لكم) وأرشد إلى أنه قريب منا يسمع دعاءنا كما قال (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .

فمن يستعن بقبر ناسك ، أو ضريح عابد لقضاء حاجة له ، أو تيسير أمر تعسر عليه ، أو شفاء مريض أو هلاك عدو فقد ضل سواء السبيل وأعرض عما شرعه الله وارتكب ضرباً من ضروب الوثنية التى كانت فاشية قبل الإسلام وبعده ولا تزال إلى الآن كذلك ، وقد نهى عن مثلها الشارع الحكيم ، إذ حصر طلب المعونة فيه دون سواه ، وجعلها مقصد كل محبت أوّاه .

وفى ذكر الاستعانة بالله إرشاد للإنسان إلى أنه يجب عليه أن يطلب المعونة منه على عمل له فيه كسب ، فمن ترك الكسب فقد جانب القطرة ونبذ هدى الشريعة وأصبح مذموماً مدحوراً ، لا متوكلاً محموداً ، كذلك فيها إيماء إلى أن الإنسان مهما أوتى من خصافة الرأى وحسن التدبير وتقليب الأمور على وجوهها — لا يستغنى عن العون الإلهى واللفظ الخفى .

والاستعانة بهذا المعنى ترادف التوكل على الله ، وهى من كمال التوحيد والعبادة الخالصة ، وبها يكون المرء مع الله عبداً خاضعاً محبباً ، ومع الناس حراً كريماً لاسلطان لأحد عليه ، لآلى ولا ميت ، وفى هذا فك للارادة من أسر الرؤساء والدجالين ، وإطلاق العزائم من قيود الأفاكين الكاذبين .

(اهدنا الصراط المستقيم) الهداية هي الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب ، والصراط هو الطريق ، والمستقيم ضد المعوج ، وهو ما فيه انحراف عن الغاية التي يجب على سالكها أن ينتهي إليها .

وهداية الله للإنسان على ضروب :

(١) هداية الإلهام ، وتكون للطفل منذ ولادته ، فهو يشعر بالحاجة إلى الغذاء ويصرخ طالبا له .

(٢) هداية الحواس ، وهاتان الهدايتان يشتركان فيهما الإنسان والحيوان الأعجم ، بل هما في الحيوان أتمّ منهما في الإنسان ، إذ إلهامه وحواسه يكملان بعد ولادته بقليل ، ويحصلان في الإنسان تدريجا .

(٣) هداية العقل ، وهي هداية أعلى من هداية الحس والإلهام ، فالإنسان قد خلق ليعيش مجتمعا مع غيره ، وحواسه وإلهامه لا يكفيان لهذه الحياة ، فلا بد له من العقل الذي يصحح له أغلاط الحواس ، ألا ترى الصفاوى يذوق الحلو مرّا ، والرأى يبصر العود المستقيم في الماء معوجا .

(٤) هداية الأديان والشرائع ، وهي هداية لا بد منها لمن استقرت الأهواء عقله ، وصخر نفسه للذاته وشهواته ، وسلك مسالك الشرور والآثام ، وعدا على بنى جنسه ، وحدث بينه وبينهم التجاذب والتدافع — فيها يحصل الرشاد إذا غلبت الأهواء العقول ، وتبين للناس الحدود والشرائع ، ليقفوا عندها ويكفوا أيديهم عما وراءها — إلى أن في غرائز الإنسان الشعور بسلطان غيبي متسلط على الأكوان ، إليه ينسب كل ما لا يعرف له سببا ، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة ، وهو بعقله لا يدرك ما يجب لصاحب هذا السلطان ، ولا يصل فكره إلى ما فيه سعادته في هذه الحياة فاحتاج إلى هداية الدين التي تفضل الله بها عليه ووجهه إياها .

وإلى تلك الهدايات أشار الكتاب الكريم في آيات كثيرات كقوله (وهديناه النجدين) أى طريق الخير والشر والسعادة والشقاء . وقوله (وأما حمود فهديناهم فاستجبوا

العمى على الهدى) أى أرشدناهم إلى طريق الخير والشر فاختاروا الثانى الذى عبر عنه بالعمى .

وهناك نوع آخر من الهداية وهو المعونة والتوفيق للسير فى طريق الخير ، وهو الذى أمرنا الله بطلبه فى قوله : اهدنا الصراط المستقيم ؛ إذ المراد — دلنا دلالة تصحبها من لدنك معونة غيبية تحفظنا بها من الوقوع فى الخطأ والضلال .

وهذه الهداية خاصة به سبحانه لم يمنحها أحدا من خلقه ، ومن ثم نفاها عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله (إنك لا تهدى من أحبيت ولكن الله يهدى من يشاء) وقوله (ليس عليك هدام ولكن الله يهدى من يشاء) وأثبتها لنفسه فى قوله (أولئك الذين هدى الله فبهم اهتدوا) .

أما الهداية بمعنى الدلالة على الخير والحق ، مع بيان ما يعقب ذلك من السعادة والفوز والفلاح ، فهى مما تفضل الله به ومنحه خلقه ، ومن ثم أثبتها للنبى صلى الله عليه وسلم فى قوله (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) .

هذا - والصراط المستقيم هو جملة ما يوصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة من عقائد وأحكام وآداب وتشريع دينى كالعلم الصحيح بالله والنبوة وأحوال الكون وأحوال الاجتماع - وقد سمي هذا صراطا مستقيما تشبيها له بالطريق الحسى ، إذ كل منهما موصل إلى غاية ، فهذا سير معنوى يوصل إلى غاية يقصدها الإنسان ، وذاك سير حسى يصل به إلى غاية أخرى .

وقد أرشدنا الله إلى سؤال الهداية منه ليكون عوننا لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا بعد أن نبذل ما نستطيع من الجهد فى معرفة أحكام الشريعة ونكلف أنفسنا الجرى على سبيلها ، لنحصل على خيرى الدنيا والآخرة .

(صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم) الذين أنعم عليهم هم النبيون والصديقون والصالحون من الأمم السالفة ، وقد أجمعهم هنا وفصلهم فى مواضع عدة من الكتاب الكريم بذكر قصصهم للاعتبار بالنظر فى أحوالهم ، فيحملنا ذلك على

حسن الأسوة فيما تكون به السعادة ، واجتناب ما يكون طريقا إلى الشقاء والدمار .
وقد أمرنا باتباع صراط من تقدمنا ، لأن دين الله واحد في جميع الأزمان ، فهو
إيمان بالله ورسله واليوم الآخر ، وتخلق بفاضل الأخلاق وعمل الخير وترك الشر ،
وما عدا ذلك فهو فروع وأحكام تختلف باختلاف الزمان والمكان ، يرشد إلى ذلك
قوله تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) إلى آخر الآية .
والمغضوب عليهم هم الذين بلغهم الدين الحق الذي شرعه الله لعباده فرفضوه
وتبذوه وراءهم ظهريا ، وانصرفوا عن النظر في الأدلة تقليدا لما ورثوه عن الآباء
والأجداد - وهؤلاء عاقبتهم النكال والوبال في جهنم وبئس القرار .

والضالون هم الذين لم يعرفوا الحق ، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح ، وهؤلاء
هم الذين لم تبلغهم رسالة ، أو بلغتهم على وجه لم يستبين لهم فيه الحق ، فهم تائهون
في عماية لا يهتدون معها إلى مطلوب ، تعترضهم الشبهات التي تلبس الحق بالباطل
والصواب بالخطأ إن لم يضلوا في شئون الدنيا ضلوا في شئون الحياة الأخرى ، فمن حُرِم
الدين ظهر أثر الاضطراب في أحواله المعيشية وحلت به الرزايا ، وهم غير مكلفين بشريعة
ولا يعذبون في الآخرة لقوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

وهذا رأى جمهرة العلماء ، وترى فئة منهم أن العقل وحده كاف في التكليف ،
فتى أوتيهِ الإنسان وجب عليه النظر في ملكوت السموات والأرض والتدبر والتفكر
في خالق الكون ، وما يجب له من عبادة وإجلال ، بقدر ما يهديه عقله ويصل إليه
اجتهاده ، وبذلك ينجو من عذاب النار يوم القيامة ، فإن لم يفعل ذلك كان من
المهلكين .

(آمين) اسم بمعنى استجب ، وفيه لغتان : المد كما قال شاعرهم :

يا رب لا تسلبني حبيبا أبدا ويرحم الله عبدا قال آمينا

والقصر كما قال الآخر : آمين فراد الله ما بيننا بعدا

وروى في الأثر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لقنني جبريل آمين عند

فراغى من قراءة الفاتحة ، وقال إنه كالتختم على الكتاب ، وأوضح ذلك على كرم الله وجهه فقال : آمين خاتم رب العالمين ، ختم به دعاء عبده - يريد أنه كما يمنع الخاتم الاطلاع على المحتوم والتصرف فيه ، يمنع آمين الخيبة عن دعاء العبد .

وهذا اللفظ ليس من القرآن إذ لم يثبت في المصاحف ، ولا يقوله الإمام في الصلاة ، لأنه الداعى كما قال الحسن البصرى ، والمشهور عن أبى حنيفة أنه يقوله ويخفيه وفاقا لرواية أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعند الشافعية يجهر به ، كما رواه وائل بن حجر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : كان إذا قرأ ولا الضالين ، قال : آمين ورفع صوته .

ويرى بعض علماء الآثار المصرية في العصر الحاضر أن كلمة (آمين) معناها الله ، فكأنها ذكرت في آخر الفاتحة للتختم باسمه تعالى إشارة إلى أن المرجع كله إليه ، ويعقدون موازنة بين (مينو) و (آمون) و (آمين) .

ويرى الثقات من علماء اللغات السامية رأيهم ، ويقولون : إنها ذكرت آخر الفاتحة لترنم بها بعد قراءة السورة التي تضمنت الإشارة إلى أغراض الكتاب الكريم ، ويؤيدون رأيهم بأن المزامير ختمت بكلمة (سلا) لترنم بها على هذا النحو - ويكون المعنى العام - إنا نتوجه إليك يا إلهنا فأليك المرجع والمصير .